# عقوق

بقلم: حمادي بلخشين

حالما بلغه خبر انتحار محمود مروان، أجهش الدّكتور سامى عمارة بالبكاء.. لم يبال بوجود زوجته إلى جانبه.

حين هدأ قليلا قال وهو يمسح دمعة :

. سبحان الله.. انتحار عمّ محمود كان آخر ما كنت أتوقّعه.

لم يكد يكمل جملته حتّى انخرط في نوبة بكاء جديدة.

. لا تنس أنّه مجرّد نزيل عندك.. لا اعتقد أنّك بكيت والدك بمثل هذه الحرارة.

هكذا علّقت زوجته.. لم يجب بشيء، فحين مات والده لم يبكه أصلا!.. كان والده شديد التّحفّظ، وكان الحبّ أصعب ما كان يستطيع إسباغه على الآخرين، كما كان أصعب ما كان يمكنه التّعبيرعنه. لأجل ذلك، ظلّت علاقته بوالده رسميّة جدّا. حتّى إنّه حين سار وراء جنازته، لم يجد أيّ شعور مغاير عن الشّعور الذي وجده أثناء تشييعه جنازة مديره !

الأمر يختلف مع محمود مروان أو عم محمود، الرّجل العاطفيّ



obeikandi.com

الذي يفيض حبّا و حنانا من كلّ جوانبه.. عم محمود هو الذي حمله في مناسبات عديدة على طبع قبلات على رأس والدته..

كان عم محمود يستحلفه في كلّ مرّة يجالسه فيها بأن يفعل ذلك:

"بلّغ سلامي إلى السيّدة الوالدة ."

ثمّ، بلهجته الودودة، وهو يطبع قبلة على رأسه:

"بجاه ربيّ بلّغها هذه القبلة نيابة عني" ...

وحين كان يغادره:

"أستحلفك بالله ثانية، لا تنس أن تقبّلها.. سأسأل الوالدة حين ألقاها".

كان يردّ عليه ممازحا:

. يا سيدّي تزوّجها ثم بلّغها بنفسك كلّ هذه القبلات!

كان عمّ محمود لا يعلّق بشيء سوى الضحك .

توصيات عم محمود وحدها، هي التي استطاعت إخراج الدّكتور سامي عمارة عن البرود العاطفيّ الذي ورثه عن والده .

بعد قبلات تكلّفيّة قليلة، تمكّن الدّكتور سامي عمارة، وبكلّ تلقائيّة و حماس، من طبع قبلة صباحيّة على رأس الوالدة.. ظلّ



obeikandl.com

هكذا لمدّة سنتين كاملتين سبقتا وفاتها. لأجل ذلك، كان يشعر بكثير من الامتنان و العرفان لعم محمود، كلّما تذكّر سعادة الفقيدة بتلك الهدايا الصّباحيّة التي لا تعوّض.

عم محمود هو الذي استطاع بفضل حنانه الأبويّ، وما تفيضه شخصيّته المرحة من حبّ للحياة وقدرة على تجشّم متاعبها، من إخراج الدّكتور سامي عمارة من فترة اليأس والاكتئاب التي أعقبت وفاة زوجته الحبيبة إثر حادث مرور. لأجل ذلك، كان الدّكتورسامي عمارة يتألم كثيرا، حتّى وهو خارج العمل، كلّما تذكّر النّهاية المأساوية التي يحياها رجل حنون و عاطفيّ و احتفاليّ مثل عم محمود...

كلّما حكى الدكتور سامي عمارة عن عم محمود و شخصيّته الدّافئة الى أحد أصدقائه، كان يصله نفس التّعليق:
"خسارة ... رجل مثل هذا لا يستحقّ مصيرا كالذي يحياه ."
حين التقط الدّكتور سامي عمارة فنجان القهوة المهجور، وجده باردا مثل جثّة. تذكّر أنّه قد تناول منه رشفة واحدة. كان قد همّ بارتشافه ثانية، حين رنّ هاتفه الجوّال ليحمل إليه نعي عم محمود

... قبل مغادرة البيت، طبع الدّكتور سامي عمارة قبلة باردة على خدّ زوجته، وهو يقول بما يشبه التّبرير:

. لا بدّ أن أقوم بزيارة ميدانيّة لأتعرّف على بعض تفاصيل الحادث .

قبل وصوله إلى "مؤسّسة حنان لرعاية العجز"... وجد الدّكتور سامي عمارة الوقت الكافي، لجعل شريط الذّكريات يمرّ أمامه.. لقد كان عم محمود أوّل نزيل حلّ بمؤسسته الخيريّة التي افتتحت منذ عشر سنوات.. تعلّق به منذ اليوم الأوّل، كان يسمّيه "أبا المعارف"، كان عم محمود رجلا واسع الثّقافة والاطلاع، كما كان مبعث سرور جميع النّزلاء، كثيرا ما وجدهم يحيطون به كأطفال صغار، وهو يقرأ عليهم قصصا شعبيّة من تأليف عبد العزيز العروي، أو أبياتا شعريّة من نظم الأديب السّاخر حسين الجزيري.

"لن تخسروا شيئا إذا ضحكتم.. بالقهقهة تستطيعون مواجهة متاعب الحياة، مهما كانت قسوتها."

هكذا كان عم محمود يوصيهم... استطاع عم محمود إخراج بعض النّزلاء من عزلتهم، وجعل الحياة أكثر قابليّة للتّحمّل .

مأساويّة الأحداث التي مرّت بعم محمود، لم تفقده مرحه ولا حبّه للحياة. " ربّي كبير" كانت لازمته الأثيرة التي لا يكلّ عن ترديدها

بين الحين والحين، خصوصا إزاء ما يحكى له من قصص العقوق و نكران الجميل .

لأول مرّة، و حين أطلعه عم محمود على قصّته، وجد الدّكتور سامي عمارة نفسه يبكي بين يديه إشفاقا و رحمة كأيّ طفل صغير... كان عم محمود يودّع آخر سنة دراسيّة من جملة واحد و أربعين سنة قضاها على التّوالي مدرّسا،ثمّ مديرا ثمّ متفقّدا للتّعليم الابتدائي، حين حدث الزّلزال الذي دمّر حياته... كان من المفروض أن يكرّم عم محمود بعد واحد وأربعين سنة من الجهود المضنية في صناعة أجيال المستقبل... لكنّ تكريمه من قبل العصابة الحاكمة في تونس اتّخذ شكلا آخر .

"كنت أتهيّأ لفترة تقاعد أصرفها بين الاهتمام بزوجتي المقعدة، و زيارة أحفادي وقراءة بعض الكتب التي لم أجد وقتا للاطّلاع عليها، حين داهمني تسونامي حكوميّ قلب حياتي رأسا على عقب... لم أتخيّل قطّ أنّ التّصدّق بعشرة دنانير على عائلة سجين. يمكن أن تحطّم حياة، وتهدم أسرة، و تقلب كيانا "...هكذا استهلّ عم محمود سرد مأساته.

...بعد جلسات طويلة ومتعددة، عرف الدّكتور سامي عمارة

قصّة عم محمود كاملة... حين اعتقل عم محمود، كانت تهمته جمع تبرّعات غير مرخّصة، وعند انتهاء التّحقيق معه، أصبحت تهمته التّآمر على أمن الدّولة، و الانتماء إلى جمعيّة محظورة، والارتباط بجهات خارجيّة معادية للوطن !

" لم أجد أيّة فرصة كي أفيد الجلّادين بأنّي قد قمت فعلا باستثارة عطف بعض أصحاب النّفوس الرّحيمة من أبناء الحيّ، للوقوف إلى جانب جارتنا المسكينة التي عاينّاها، وهي تكابد الفقر والخصاصة، بعد اعتقال زوجها بتهمة الانتماء إلى حركة النّهضة ذات الاتّجاه الإسلاميّ، وأنّ التّبرّعات التي جمعتها، كان مآلها جيب جارتي، وليس خزينة حركة النّهضة. كما لم أجد الفرصة للتّعبير عن عدم انتمائي للحركة المذكورة.. وقع تعذيبي بشدّة، علّقت من معصميّ حتّى أصيبت ذراعي بإعاقة دائمة. قلعت أظافري. رميت بين أكثر مساجين الحقّ العامّ شذوذا ودناءة. رغم شيخوختي وتوسّلاتي، لم يتردّدوا في اغتصابي... بعد أربع سنوات من جحيم الإيقاف التّحفظيّ، حكم عليّ باثنتي عشرة سنة... فقداني ليدي اليمنى ورجلي اليسرى أعفاني من الأشغال الشّاقّة... قبل حلول الذّكرى الخامسة لاعتقالي، فقدت

زوجتي. علمت بوفاتها عن طريق سجين جديد كنت صديقا لوالده، قبل فقدان زوجتي بمدّة أطول بقليل، تأكّدت من فقدان ولديّ وواحدة من بناتي... باستثناء ابنتي الصّغرى، لم يقدم أحدهم على زيارتي، التمست لهم العذر.. كان الأوّل رائدا في الجيش، كما كان الثّاني مخرجا تلفزيونيّا شهيرا. أمّا ابنتي الكبرى فقد كانت زوجة مسؤول حكوميّ كبير.

عد تسع سنوات من الاعتقال الظّالم، وحين غادرت السّجن، بعد أن شملني عفو رئاسيّ بمناسبة حلول الذّكرى الخامسة عشرة لتحوّل السّابع من نوفمبر٨٧، لم أجد أحدا حولي، خصوصا وقد أصبحت من ذوي الاحتياجات الخاصّة، إلى أن سمعت بمؤسّستكم."

لم يحتج الدّكتور سامي عمارة إلى سؤال عم محمود عن ابنته الصّغرى. فقد علم منه أنّها توفيّت بسرطان الثّدي خلال السّنة الرّابعة من اعتقاله.

أثناء سرد معاناته، لم ينس عم محمود تذكير الدّكتور سامي عمارة بين الحين والحين بأنّ "ربّي كبير"، وكأنّ الدّكتور سامي عمارة هو المصاب دونه !

حبّ الدكتور سامي عمارة لعم محمود، و بحثه عن سبيل حقيقي

لإسعاده، حمله ذات مرّة على زيارة العقيد أشرف مروان في بيته، وتذكيره إلى حدّ التّوسّل بضرورة زيارة والده الشّيخ، حتّى إنّه اقترح عليه استقباله في بيته لنفي أيّة شبهة عنه... كان رفض العقيد مروان قاطعا وحادّا و فظّا.. كان يخشى من تسرّب خبر يفقده موقعه البارز في السّلطة، خصوصا و قد رقي إلى رتبة جنرال..

حين خرج سامي عمارة من عنده، فهم لأوّل مرّة كيف يمكن للنبيّ نوح أن يلد كافرا... موقف المخرج سامح مروان كان أسوأ من موقف أخيه، أعلن بكل بجاحة:

"ما دام قد اختار مصيره بنفسه، فليتحمّل جرائر ما قدّمت يداه."

رأى سامي عمارة أنّ من العبث الدّفاع عن عم محمود لأجل ذلك، انصرف متحسّرا.

منذ أشهر قليلة، اقترح الدّكتور سامي عمارة على زوجته جلب عم محمود للإقامة بينهما، غير أنّ اقتراحه قد جوبه برفض واستهجان شديدين. منذ ذلك الحين أيقن الدّكتور سامي عمارة أنّه قد تسرّع في اختيار شريكة ثانية.

آخر مرّة رأى فيها عم محمود كان مساء أمس الأوّل، أوّل أيّام عيد الفطر. اعتاد الدّكتور سامي عمارة الذّهاب مباشرة بعد

صلاة كلّ عيد إلى مؤسّسته الخيريّة لمؤازرة قاطنيها، ورفع معنوياتهم... كان يدرك جيّدا حساسيّة تلك المناسبات، التي لم تصبح سعيدة، وما تبعثه في نفوس هؤلاء المنبوذين من مواجع وحسرات..

كان عم محمود، وعلى غير عادته، واجما بعض الشّيء حتّى إنّه لم يتحمّس كما كان يفعل دائما، حين اقترح عليه مقابلة (إسكرابل). لم تكن حاله كذلك قبل ساعات قليلة حين سهر معه إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، حتّى إنّه قبل أن يغادره، طلب منه مبتهجا التّنازل له عن جريدة "الصّباح"، وقد فعل الدّكتور سامي عمارة بكلّ سرور رغم احتياجه الى قراءة خبر أوصاه صديقه بضرورة الاطّلاع عليه نظرا لطرافته .

حين اجتاز الدّكتور سامي عمارة عتبة المؤسّسة الخيريّة، طالعته سميّة بوجهها الصّبوح، وقد بدا عليها التّأثّر الشّديد، بادرها بقوله :

كيف حدث ذلك ؟

. حين ذهب عم صالح لإيقاظه لصلاة الفجر، وجده مشدودا بحبل إلى سقف غرفته... أثبت الطّبيب المرافق للجنة البحث

الجنائيّ أنّ الموت قد حدث قبل ساعة .

. كيف كان بالأمس؟

. كان متجهّما على غير عادته.

. هل تجاذبت معه أطراف الحديث ؟

. فقط حين طلب منّي نسخ مقال صغير من جريدة" الصباح."

. هل تذكرين ما كان محتواه ؟

. لم أهتم بذلك.

. ماذا حدث بعد ذلك؟

. عند انتهاء الدوام، سلّمني رسالة، ورجاني إسقاطها في أقرب صندوق بريد... كانت تحمل اسميّ أشرف، وسامح مروان .

حين توجه الدّكتور سامي عمارة إلى غرفة عم محمود، كان يأمل بوجود جريدة "الصباح"؛ لعلّه يجد بين طياتها ما يفسر لغز انتحار عم محمود، غير أنّه وجد الغرفة مختومة بالشّمع الأحمر. حين سأل عن الجريدة أفادته سميّة بأنّ كلّ أغراض عم محمود قد جمعت في كيس بلاستيكيّ أسود، ثمّ أخذت مع الجثّة .

حين كان الدكتور سامي عمارة يغادر المؤسسة بلغه صوت سميّة :

. دكتور سامي انتظر.



obeikandl.com

التفت فرأى سميّة تسير باتّجاهه، وفي يدها ورقة وهي تتقدم نحوه وتقول:

. كنت أخبرتك أنّني نسخت مقالا لعم محمود...

. ما لم أر ضرورة لذكره، هو أنّني قد فشلت في محاولة نسخي الأولى ..

. لقد نسخت النّصف الأعلى من المقال المطلوب. لأجل ذلك أعدت نسخه ثانية. ثم وهي تمد له الورقة:

. وها هي النسخة المبتورة .

تفحّص الدّكتور سامي عمارة الورقة المنسوخة، تحت عنوان: " في الصين، وفاء من نوع آخر". قرأ ما يلي : قطع الكلب "هوا هوا" و عمره سنة واحدة مسافة خمسين كيلومترا لزيارة السّيد "لي شون" الطّبيب البيطري الذي اعتنى به لمدّة ستّة أيّام قبل أن يعيده إلى منزل صاحبه، وقد فوجىء الطّبيب البيطريّ الشّاب ذات صباح شتوي بالكلب "هوا هوا"، وهو يقف مرتجفا أمام بوّابة عيادته الخاصّة. كان "هوا هوا " قد قطع مسافة...

ارتجفت يدا الدكتور سامي عمارة، أصيب بذهول أعقبه ألم شديد، ترك الورقة تسقط من يديه، وجد نفسه يتهاوى على الأرضيّة الرّخاميّة الباردة، أدركته سميّة.. أخذت بيده.

. خيرا دكتور

. شكرا سميّة. لا شيء، مجرّد صداع خفيف. ثمّ وهو يحدّث نفسه " الآن فقط أدركت الأثر المدمّر الذي أحدثه خبر الكلب الوفيّ في نفس أب منبوذ بذل سنوات عديدة من عمره في العناية بثلاثة أبناء عاقّين."

حين أوجز الدّكتور سامي عمارة لسميّة ما قرأه لتوّه، أشارت الأخيرة إلى أمر لم يتفطّن إليه الدّكتور سامي عمارة من قبل .

. لعلّ أكثر ما آلم عم محمود – رحمه الله – أنّ أبناءه الثّلاثة لم يكونوا بحاجة إلى قطع واحد من خمسين من المسافة التي قطعها الكلب الوفيّ "هوا هوا" للتّعبير له عن عرفانهم بالجميل...

فأبعدهم عنه سكنى، كان يقطن على مسافة أقلّ من كيلومتر واحد منه.!